

قراءة سوسيولوجية حول دراسة "الفلاح البولندي" ل: توماس وزنانينكي

A sociological reading about the study of the " The Polish Peasant "

by: Thomas and Zananki

سليمة العمري *

¹ جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي (الجزائر)، Lamrisalima_modest@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2020/12/30

تاريخ القبول: 2020/12/29

تاريخ الاستلام: 2020/11/25

ملخص:

يروم هذا المقال إلى قراءة سوسيولوجية لدراسة " الفلاح البولندي " للمفكرين توماس وزنانينكي، كأحد الإسهامات البارزة في علم الاجتماع، ويكتسي أهميته من خلفية إهتمام الباحثان بالأبعاد الاجتماعية و النفسية للهجرة والإدماج الاجتماعي للفلاحين البولنديين الذين هاجروا إلى أمريكا في أوائل القرن العشرين، وتعد الهجرة من القضايا التي شغلت بال العديد من المفكرين على اختلاف تخصصاتهم قديما وحاضرا. والهجرة كظاهرة اجتماعية لم تلق إهتماما مماثلا من قبل علماء الاجتماع حينما تم إعطاء الأولوية للعوامل الاجتماعية و الاقتصادية. وأتصفت دراسة توماس وزميله بالعمل المؤسس والأكثر تمثيلا لمدرسة شيكاغو أو لعلم الاجتماع الأمريكي عموما، حيث تضمنت مفاهيم اجتماعية وثقافية محددة للتغيير، فضلا عن كونها قيمة في التطوير المنهجي للعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة وغيرها، الأمر الذي شكل قطيعة مع تقاليد البحث السابقة بإعتمادها على البحث الميداني المستمد من الواقع.

كلمات مفتاحية: الفلاح البولندي؛ الهجرة؛ القيم الاجتماعية؛ الموقف الاجتماعي.

Abstract:

This article aims at a sociological reading of the study of the " The Polish Peasant " by thinkers Thomas and Zananki, as one of the major contributions in sociology, and its importance comes from the context of the interest of researchers in social dimensions and psychological aspects of immigration and social inclusion of Polish peasants who immigrated to America at the beginning of the 20th century, and migration is one of the problems This has occupied many thinkers from different disciplines, past and present, and

Migration as a social phenomenon has not received similar attention from sociologists when priority was given to social and economic factors. Thomas and his colleague study the foundational and most representative works in Chicago or American sociology in general As it included specific social and cultural concepts of change, in addition to being valuable in the systematic development of the social sciences in the United States and elsewhere, it broke with previous research traditions by relying on field research drawn from reality.

Keywords: The Polish Peasant; Immigration; Social values; Social position.

*المؤلف المرسل

1 مقدمة :

لقد بات معلوماً، أن علم الاجتماع كإتجاه أكاديمي يعنى بدراسة المجتمع ويبحث في العلاقات الإجتماعية و الجماعة وغيرها من المفاهيم ذات الصلة، نشأ وترعرع في أوروبا على يد الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت ، إلا أن الباحث في جذور دراسات علم الاجتماع سيجدها حتما تمتد إلى قرون ماضية، إذ يعتبر العلامة إبن خلدون المؤسس الفعلي لعلم الاجتماع وأول من وضعه على أسسه الحديثة، وصاغ نظرياته لتسهم في تبيان معالمه وتطوره.

ومنذ ذلك الوقت، أثار علم الاجتماع الكثير من الجدل في أوروبا، فظهرت ثلة من المفكرين يحاولون تفسير الواقع وتحليل الظواهر الاجتماعية بعيدا عن الكنيسة وقوانينها على غرار دوركايم الذي جاء بمبادئ المنهج العلمي، وكثرت بذلك الاتجاهات النظرية وتنوعت المناهج العلمية.

وإمتدادا لذلك، إهتم علماء الاجتماع الأمريكي منذ الحرب العالمية الأولى بدراسة المشكلات الاجتماعية و الظواهر المختلفة دراسة أمبريقية، وتطورت ضمنه العديد من المدارس كمدرسة شيكاغو التي أرتبط ذكرها بالدراسة الموسومة " الفلاح البولندي" لتوماس و زنانيكي التي عالجت مشكلة الهجرة وآثارها المختلفة.

وبإيجاز، نحاول ضمن هذا المقال عرض جانب مهم من دراسة "الفلاح البولندي"، التي ساهمت بشكل فعال في لفت إنتباه الكثير من المفكرين إلى أهمية البحوث الميدانية من خلال الأدوات المعتمدة في البحث وظهور مفاهيم إجتماعية جديدة.

فضلا عن ذلك، تكتسي الدراسة أهميتها من أهمية الموضوع ذاته وهو الهجرة وإنعكاساتها على مستوى التنظيم الاجتماعي للمجتمع البولندي، وما يزيد من أهمية هذه الدراسة أيضا تحليلها للهجرة ببعدها الثقافي الذي يتمحور حول بناء الهوية الثقافية الجديدة ولعب الفلاح المهاجر دور الفاعل في البيئة الجديدة، فبات الانفصال والقطيعة سمة الثقافة الأصلية ومحاولة الاندماج والانصهار سمة الثقافة الأخرى. وبترسخ دور الإتجاه والبعد النفسي والثقافي في موضوع الهجرة باتت هذه الدراسة "من أهمها في مدرسة شيكاغو السوسيولوجية وإلى حد الآن تعد ملهمة الإثنوغرافيين والإثنوميثودولوجين والأنثروبولوجين وخاصة في دراسة الهجرة و التمثلات الثقافية و الممارسات الاجتماعية اليومية"(حطاب، 2017، ص:71)

ومن أجل الوقوف على الجوانب السابقة، قد تثار تساؤلات كثيرة على شاكلة :

- ما هي الإسهامات السوسيولوجية التي جاء بها توماس وزنانينكي من خلال دراسة "الفلاح البولندي"؟
- ما هي الإضافة العلمية التي قدمتها هذه الدراسة لعلم الاجتماع حتى تكون جزءا لا يتجزأ منه ؟
- ما هي الخيارات المنهجية المتبعة في دراسة "الفلاح البولندي" كعمل بحثي أمبريقي يختلف عن سابقه؟
- ما هي أبرز النتائج المتوصل إليها والتي فسحت المجال واسعا لدراسات لاحقة ؟

إن طرح تساؤلات كثيرة في هذا الشأن لا يعني بالضرورة الإجابة عنها بجزئياتها بقدر ما يعني التفكير فيما تضمنته، لذلك نرى من الصواب في البداية إعطاء لمحة موجزة عن حياة الباحثان وتلميها نظرة عامة حول الدراسة "الفلاح البولندي" ثم التطرق إلى أهم منطلقات الدراسة وأهدافها، وكذا تبيان المفاهيم الأساسية في دراسة "الفلاح البولندي"، ومن ثمة الخيارات المنهجية المتبعة في الدراسة وصولاً إلى أهم النتائج المتوصل إليها.

1- لمحة موجزة عن الباحثين:

1-1 وليام توماس (William Isaac Thomas):

هو عالم إجتماع وكاتب أمريكي من أصول هولندية، من مواليد 13 أوت 1863 بمقاطعة راسل بولاية فيرجينيا، (موسوعة ويكيبيديا) إنتقل مع عائلته إلى تينيسي لحرص والده على تعليمه، وفي عام 1884 تحصل توماس على شهادة البكالوريا ثم درس بجامعة تينيسي، وأصبح أستاذاً مساعداً في اللغة الإنجليزية، ثم ذهب إلى ألمانيا لمواصلة دراسته وإلتحق بالعديد من الجامعات الألمانية على غرار جامعة هومبولت وجورج أوغست كان ذلك عام 1889.

بعد عودته إلى الولايات المتحدة عمل أستاذاً في اللغة الإنجليزية، ثم أستاذاً في علم الاجتماع بكلية أوبرلين في أوبرلين، كما دعي للتدريس بجامعة شيكاغو في ذات التخصص عام 1894. توفي توماس في 05 ديسمبر 1947 بالولايات الأمريكية.

ومن إسهاماته المهمة معالجته لقضايا المجتمع الثقافية، وصف الأعراق البشرية، تطور شخصية الأفراد الطبيعيين والمجرمين... إلخ، ولكن إسهامه الأبرز جاء حول الهجرة و الثقافة، الشخصية وأشتهر في هذا المجال بإستحدثاته لمفهوم القيم والمواقف، وكذا إستخدامه للسيرة الذاتية في العلوم الإجتماعية وأصدر أكثر من أربعين مطبوعة في مقدمتها دراسة "الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا".

2-1 فلوريان زانيكي Florian Znaniecki :

هو عالم إجتماع وعالم نفس إجتماعي من أصل بولندي ولد في 15 جانفي 1882 بولاية فرجينيا التابعة لبولندا، وواحد من ثلاثة أطفال لمدير ممتلكات عقارية تلقى تعليمه على يد العديد من المعلمين فأتقن اللاتينية ثم درس الأدب وكتب الشعر وعمره 11 سنة، نشر قصيدته بعنوان «إلى بروميثيوس» سنة 1903، "في جامعة وارسو بدأ دراسته الجامعية كان زانيكي ينتمي إلى جماعة سرية متمردة على السلطات الروسية...نظم الطلاب احتجاجا على الإدارة وتم إختياره كممثلا لهم ولظروف كثيرة إتسمت بعدم الاستقرار إنتهت بطرده وبفشله في الدراسة. وبعد مرور فترة طويلة جمع فيها زانيكي بين السفر و الدراسة إنتقل خلالها إلى سويتز، فرنسا وإيطاليا، إلتحق بجامعة جنيف فحصل على درجة الماجستير ثم عاد إلى بولندا فتحصل أيضا على درجة الدكتوراه من جامعة كراكوف عام 1909 (Bierstedt, 2013, p:185)."

من أهم إسهاماته في علم الاجتماع "الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا" وكذلك "قوانين علم النفس الاجتماعي" سنة 1925، "منهج علم الاجتماع" سنة 1934 و "الأفعال الاجتماعية" سنة 1936 و "العلوم الثقافية أصلها وتطورها" سنة 1952، والكتاب الذي نشر بعد وفاته "العلاقات الاجتماعية والأدوار الاجتماعية" سنة 1925. (تيماشيف، 1980، ص:43)

2- نظرة عامة حول دراسة الفلاح البولندي :

قد يبدو مفيدا من الناحية التحليلية في هذا المقال الاستهلال بنظرة عامة عن . دراسة الفلاح البولندي .. ليتسنى لنا بعد ذلك التفصيل في مضامينها، ففي السنوات 1918 إلى 1920 نشر توماس و زانانيكي كتابهما الموسوم الفلاح البولندي وهو عبارة عن دراسة أمبيريقية حول مشكلة الهجرة و الإندماج من خلال متابعة مجموعة من المهاجرين

البولنديين وأسرهم ومعرفة حياتهم في بلدهم الأصلي إلى غاية وصولهم إلى أمريكا. ولقد وقع إختيارهما على المجتمع البولندي بناء على الكم الهائل من الوثائق الشخصية المتاحة لهما، ووقع الكتاب في أربعة أجزاء رئيسية، نحاول إستعراض البعض من الجوانب السوسيولوجية البارزة فيه كما يلي:

2-1 تنظيم المجموعة الأولية :

يعرف توماس الأسرة الفلاحية البولندية بأنها "مجموعة إجتماعية تشمل كل أقرباء الدماء والقانون إلى حد معين، عادة الدرجة الرابعة. ويمكن أن يطلق على الأسرة، بالمعنى الضيق، بما في ذلك الزوج المتزوج فقط مع أطفاله، اسم "مجموعة الزواج". ولا غنى عن هذين المفهومين، وهما الأسرة والمجموعة الزوجية، لإرضاء الحياة المتعصبة". (Park & Mille, 2003, p: 33)

وبالنسبة إلى توماس الأسرة هي "الجماعة الاجتماعية المنظمة الوحيدة التي ينتمي إليها الفلاح بصفة أساسية كعضو فعال... ويعد انفصال الفلاح البولندي عن التنظيم السياسي و الاجتماعي ملمحة أساسية للحياة الاجتماعية الريفية البولندية". (كمال، 1993، ص: 127)

كما أن الحديث عن التضامن الأسري لدى الفلاحين لا يحتاج إلى تدليل على أنه - حاكم ومؤثر. فعلى الرغم من أن علاقة الأسرة بجيرانها لا تعتبر علاقة قوية إلى حد ما، إلا أن الاعتقاد السائد في المجتمع البولندي هو الإيمان القوي والراسخ أن جميع الفلاحين يتقاسمون نفس الآراء حول أدوارهم وعلاقاتهم في المجتمع. فهو ليس مجرد إعتقاد بل هو أحد الركائز التي تشكل "التنظيم"، فالأسرة بإعتبارها المجموعة الأولية وما تحمله من عادات إجتماعية وتقاليده وطقوس و التي تختزل جوانب الإتفاق بين أفراد المجتمع تعكسها المواقف و القيم الجماعية التي تسود المصالح الفردية للمجموعة الأولية أو الاجتماعية.

وتمنح جهود توماس صورة عن المجتمع التقليدي المنعزل و المنغلق، والذي يغلب عليه شعور قوي بتماسك الجماعة، ولعل من عوامل التماسك الاجتماعي البارزة فيه هي تلك الإستجابة المتأصلة التي يبديها الأعضاء تجاه الجماعة، وهذا حتما راجع إلى الشعور بالإنتماء لها أو بالأحرى للمجتمع الصغير المتمثل في الأسرة، وتتضح الصورة أكثر عندما يتعلق الأمر بنظام الزواج والبناء الطبقي، فمثلا نجد أن زواج الفلاحين البولنديين يتم بين الأسر وليس بين الأفراد، كما أنه لا يمنح للمعاشرة الزوجية أية قيمة مستقلة في ظل وحدة المعتقد وبهذا المعنى، لا يبني التنظيم على العاطفة وإنما تحكمه علاقة إلزام الأعضاء بقوانين المجموعة الأولية وهكذا يكون الفلاح بعيدا عن المؤثرات الخارجية.

كما أشار توماس في مطلع كتابه، أنه من الضروري جدا النظر في العوامل الثقافية والإقتصادية والسياسية الكامنة وراء تفكك الأسرة البولندية التقليدية وتنمية ظاهرة الهجرة، وهو أمر يستحق عليه أن تعتبر المجموعة الاجتماعية التي شكلتها عائلة الفلاحين البولنديين نقطة إنطلاق مهمة لتحليل العملية التي يتم من خلالها تكوين الحياة الأسرية وتحويلها في المجتمع.

2-2 عدم التنظيم وإعادة التنظيم في بولندا:

في تحليلهما المشترك حول عدم التنظيم وإعادة التنظيم أو الفوضى التي عرفها مجتمع الفلاحين في بولندا، يوضح كل من توماس وزنانينكي أن سوء التنظيم تعبير عن تشكيل أنواع جديدة من التنظيم الاجتماعي في ظل تراجع تأثير القواعد الاجتماعية على الأفراد، ولعل ما يسند لمعنى الفوضى الاجتماعية أنها: "حالة متعارضة غير مستقرة للناس تنتج من نزاعهم حول عدد من الأعراف أو الأخلاقيات التي يعملون بها في اجتماعاتهم المدنية. وتمثل الفوضى الاجتماعية مرحلة تحول سلوكي نتيجة دخول عوامل اجتماعية جديدة لم يمكن استيعابها بصفة عملية بناءة، أو عندما يتوقف عامل اجتماعي أصيل عن العمل بفعل ثورة أو تبديل أو حذف طارئ حاد لم يستطع الناس استيعابه نفسيا

سلوكيا، حيث تعمل هذه الفوضى الاجتماعية على زعزعة وحدة الموقف الاجتماعي للناس". (حمدان، 2015، ص: 41)

لذلك لا يجد المتمعن في معنى الفوضى الاجتماعية إلا أنها فوضى القيم و الثقافة في التغيير وليس شرطا أن تكون فوضى عقلية. وما أراد توماس الوصول إليه هو أن الفوضى الاجتماعية هي تعبير عن تفكك أجزاء البناء الاجتماعي للمجتمع التقليدي في بولندا بعدما كانت سماته الجمود والثبات . إن جاز لنا القول ،، إذا المسألة المطروحة هنا هي مسألة التحول في السلوك نتيجة عوامل إجتماعية جديدة وليست العوامل الاقتصادية والسياسية وحدها تشكل المحرك لإعادة التنظيم.

3-2 التنظيم و الفوضى في أمريكا :

جاءت محاولة توماس من خلال هذا الجزء للتعقق أكثر في فهم كيفية بناء المجتمع الجديد، وسيرورته وتطوره، ولقد أطلقها على هذه المرحلة بـ " الفوضى في أمريكا " ليبين من خلالها أن الظروف الجديدة التي يعيشها البولنديون في أمريكا تختلف تدريجيا عن حياتهم بمجتمعهم الأصلي بما يمتلكونه من ثقافة، عادات وتقاليده. ويعزو توماس هجرة الفلاحين البولنديين وتدفقهم نحو البلد المستقبل أمريكا إلى التغير السريع الذي عرفه المجتمع البولندي على المستوى الإقتصادي، فضلا عن تأثير العوامل الطبيعية.

وللتكيف مع الواقع الجديد يواجه المهاجرون الظروف المختلفة بإعادة تنظيم سلوكهم مرة أخرى لتشكل قواعد وأنشطة تقليدية في عملية إعادة تنظيم الأنماط الاجتماعية للمهاجرين. وأوضح توماس أن ملامح التحول وتجلياته في "المجتمع البولندي الأمريكي" أو كما أسماه "المجتمع الجديد" الذي يعود أساسه إلى الثقافة البولندية وتقاليدها تبدو في صعوبة إندماج الفرد في العائلة الممتدة، وتراجع كبير في قوة تأثير القيم الاجتماعية، مؤكدا على أنه وعندما لا تجد المواقف الفردية الرضا والقبول في المجموعة الأولية تحدث الفوضى

بعد عملية تقييم للممارسات الفردية وتظهر بذلك أنماط جديدة في التفكير والممارسة في وجود دعم قوي في مواجهة القواعد الاجتماعية.

3- أهداف الدراسة في "الفلاح البولندي" ومنطلقاتها:

لقد حاول توماس و زنانيكي من خلال دراستهما "الفلاح البولندي" البحث في معرفة الأسباب الكامنة وراء هجرة الفلاحين البولنديين في أوروبا وأمريكا، والتعمق في الآثار الناجمة عنها، سيما وأن موضوع الهجرة بات مرتبطا بظروف الاقتصادية. من هنا أراد توماس وشريكه التركيز على الهجرة كظاهرة اجتماعية بنظرة اجتماعية نفسية بالدرجة الأولى محاولين في ذات الوقت فهم التغيرات الاجتماعية والثقافية والإقتصادية التي إستطاعت أن تغير التنظيم الاجتماعي المجتمع البولندي.

وبناء على ذلك، ولما كان هدف هذه الدراسة ينحصر في تناول الجانب الاجتماعي والنفسي للهجرة، فإن هذا يعني أنه ما يهم الباحثين هو الكشف عن التغيرات الاجتماعية التي مست التنظيم الاجتماعي في المجتمع البولندي، بداية من القيم وإتجاهات الفلاح البولندي جراء هذه الهجرة الشاملة، ومحاولة الكشف عن العوامل الذاتية المؤثرة في المواقف الاجتماعية التي تظهر من خلال التفاعل الاجتماعي للفلاحين مع محيطهم الاجتماعي سواء في البلد الأصلي أو البلد المهاجر إليه.

أما عن المنطلقات الأساسية للدراسة فتمثلت في النقاط التالية :

- التنظيم الاجتماعي عبارة عن مجموعة من النظم الاجتماعية التي تحدد سلوك الأفراد في المجتمع.
- الثقافة هي جملة من القيم المادية و الاجتماعية لأية جماعة من الجماعات البشرية.
- تساعد القيم المجتمع على مواجهة التغيرات ... وتحفظ للمجتمع استقراره وكيانه في إطار موحد"

• الفعل الاجتماعي هو الوحدة الأساسية التي ينبغي في ضوءها تحليل المجتمع والثقافة، من خلال الموقف الاجتماعي. (كمال، مرجع سابق، ص: 97)

• معالجة الظاهرة الاجتماعية نظريا و أمبريقيا يقتضي النظر إليها نظرة كلية.

4- المفاهيم الأساسية في دراسة "الفلاح البولندي":

1-4 الهجرة:

ذكرت العديد من الأدبيات المهمة بالهجرة تعرض بولندا مع مطلع القرن العشرين إلى هجرة واسعة للبولنديين نحو بعض البلدان الأوروبية والأمريكية، وقد تعاظم عدد المهاجرين وتضاعف حتى أصبح ينظر للهجرة على أنها ظاهرة إجتماعية تستحق التحليل والوقوف على أسباب إرتفاعها في بولندا. كما أن المتتبع للواقع الذي يعيشه هذا المجتمع وجد أن الهجرة قد صاحبها جملة من التغيرات الإجتماعية، ولعل هذا من بين الأسباب التي دفعت بتوماس وزميله زنانينكي إلى محاولة فهمها والتعمق فيها.

إن ما يميز دراسة "الفلاح البولندي" كعمل بحثي في مجال سوسيولوجيا الهجرة و التحضر هو أنه يكاد فيها أن يصرف النظر عن العامل الاقتصادي بل تقوم على الجمع بين العديد من العوامل ذات الصلة بالهجرة بحيث يصعب الإشارة إلى أهمية كل عامل منها على حدة. ويعني هذا، أنه من البديهي التعمق في عوامل الجذب لهؤلاء المهاجرين برصد بعض خصائص الهجرة كفعل عقلائي نابع من الفرد ومرتبطة من ناحية أخرى بتفاعله مع الآخرين وهي الصورة الأمبريقية التي أعطاهها توماس عن الهجرة و مضامينها، إذ لا تختزل في الحيز الجغرافي بالإنتقال من مكان إلى آخر أو في وجود البلد الأصلي و البلد المضيف بل تتعداه إلى الجمع بين الذات والموضوع متجاوزا العوامل التقليدية التي تركز على العامل المادي البحث.

وللاعتبار ذاته، تم تحليل الهجرة على أنها ناتجة عن الفوضى الاجتماعية في المجتمع البولندي عندما حدث تغيير في العلاقات التقليدية بين الفلاحين وأسرهم ما أدى بهم إلى

تشكيل قيم وممارسات جديدة التي أثرت بدورها على السلوك الاقتصادي و الحياة العامة لهم.

إذن، ما حاول توماس أن يشرحه من خلال تحليله للهجرة إنطلاقاً من الأسرة كوحدة أساسية لا يكون إلا ضمن الإطار الثقافي للمجتمع الذي يختلف من مجتمع لآخر، فضلاً عن التوليف بين العناصر: المجتمع، الثقافة، الشخصية في وجود التأثير المستمر لها تعكس النظرة التقليدية للهجرة وهي شبيهة إلى - حد ما - بفكرة النسق عند بارسونز الاعتماد المتبادل بين الأجزاء التي تشكل كلا بحيث ترتبط ببعضها و التغير داخل الكل بمثابة نتيجة للتفاعل المعقد في البناء الاجتماعي.

2-4 القيم كأشياء ثقافية :

تدلنا جهود بعض علماء الاجتماع أن " القيمة " أستخدمت بألفاظ متعددة كالطرائق الشعبية، الأعراف ،المعايير..إلخ، وكان المقصود منها تلك الجوانب الثقافية التي لها صفة التقويم لكونها مطلباً أساسياً في أي مجتمع، كما تحيلنا صفة التقويم إلى ضرورة إمتثال الأعضاء للجماعة. من هنا، بدأ مضمون القيمة واضحاً في دراسة الفلاح البولندي والتي عرفها توماس بأنها " أي معنى ينطوي على مضمون واقعي وتقبله جماعة اجتماعية معينة كما أن لها معنى محدداً بحيث تصبح في ضوئه موضوع معيناً أو نشاطاً خاصاً ".(مسلم، 2001، ص:332)

كما فرق زنانينكي في هذا الخصوص بين الأشياء الطبيعية التي تشكل أنظمة بيولوجية ويسمها " أشياء " وبين القيم ويسمها "الأشياء الثقافية" ،ففي كتاباته الفلسفية المبكرة يعامل زنانينكي القيمة "باعتبارها فئة أساسية من الكائنات العقلانية، هذا مما يسمح له بافتراض منطق القيم على غرار المنطق رسمي مما يجعل من الممكن تحليل نظام "الأشياء" أي نظام قيم يكون له معنى فقط فيما يتعلق بالأفعال البشرية؛ البيانات التي تم جمعها

في من خلال التجربة يتم تفسيرها بشكل فردي من خلال الشبكة التي يشكل نظام القيم الخاص بكل واحد منا". (Sinatti, 2008, p:177).

من هنا وعلى نحو ما بانت لنا، أن ما جعل من القيمة موضوعا يكتسي الكثير من الأهمية ألا وهي أهميته الاجتماعية، بعدما رفض توماس التفسيرات البيولوجية في دراساته هات وميله الواضح للتفسيرات الاجتماعية جعله يخلص إلى أن القيم هي العناصر الثقافية الموضوعية للحياة الاجتماعية بينما تشكل المواقف الخصائص الذاتية للأفراد.

3-4 الموقف الاجتماعي :

من بين الإسهامات التي جاء بها كل من توماس وزنانينكي نجد مفهوم الموقف الاجتماعي الذي عرفه بأنه: "عامل يتوسط بين الاتجاهات والحوافز والأهداف". (جذعان وآخرون، 2007، ص:369) ويميل علماء الاجتماع عموما إلى فكرة مؤداها أن المواقف التي ستمثل قواعد سلوك الأفراد التي تضعها المؤسسات الاجتماعية، تصبح مبادئ لتنظيم المجموعة الاجتماعية، إن أهمية هذه الفكرة توافق ما جاء به توماس حول المواقف التي ستحدد الخصائص الذاتية لأفراد المجموعة الاجتماعية، وهذا ما يجعل من المواقف عملية نفسية تدرس في مظاهرها خاصة فيما يتعلق بالعالم الاجتماعي. كما أن فكرة الموقف عند توماس، تلك الفكرة التي طورها أساسا من أجل أن تكون وسيلة لتحدي النهج البيولوجي للسلوك، كما أن في تخطي الرؤية البيولوجية يأخذ الموقف الاجتماعي الشكل المكان الذي كانت تشغله الغريزة في السابق. ويخلص إلى أن الموقف يعد "موجه دائما نحو شيء ما. يجعل من الممكن التنبؤ بالسلوكيات الفعلية والمحتملة للفرد في مواجهة التحفيز الاجتماعي" (Pétard, 2007, p:28) من هنا نجد أن، ما تعكسه حقيقة التطورات التي قام بها الفلاحون البولنديون هو حدوث الترابط بين التحولات الاجتماعية وتحولات المواقف، وبالتالي توضيح آثار هذه التغيرات الخاصة بالسلوك البشري تظهر في تكيف الشخص أو في إنحلاله.

ولعل من أهم المفاهيم التي نالت حيزا مهما في دراسة " الفلاح البولندي " و التي لم نشأ التطرق إليها بحذافيرها، كونها موجودة ضمنيا في سياقات مختلفة لذا أكتفينا ببعض الإشارات الهامة التي إعتقدنا أنها يمكن أن تكون مطرقا لموضوعنا وهي :

✓ التغير الاجتماعي: ويقصد به تغيير توازن التنظيم الاجتماعي للأفراد والمجموعة على حد سواء، حيث يبدأ بالفوضى وينتهي بإنتاج سلوكيات جديدة ثم إعادة بناء التنظيم الاجتماعي.

✓ الوضع: إدراك الفرد لمواقفه الخاصة وتحديد لها وإدراك مواقف الآخرين بناء على القيم التي يؤثر على الفرد أو المجموعة والتي تشكل الشروط الموضوعية للعمل الاجتماعي القائمة على الوعي والتفاضل بين موقف وآخر.

✓ الشخصية: نظام من المواقف المنظمة التي تنتج عن عملية الثقافة وتبرز ثنائية البيئة والشخصية، وبعبارة أخرى الشخصية بمثابة همزة وصل بين موقف وموقف.

✓ النمط الاجتماعي : يعتبر موجهًا لتنظيم الحياة يعتمد على جملة المواقف والقيم للأفراد وهو من المفاهيم القريبة من أسلوب الحياة عامة، ولقد خلص الباحثان من خلال دراستهما إلى وجود ثلاثة أنماط هي : البليد، البوهيمي، المبدع.

ومن بين إسهامات توماس وشريكه من خلال هذه الدراسة الجمع بين الاتجاهات الفردية والقيم الاجتماعية وذل في قولهما : " إن سبب القيمة أو الاتجاه لا يمن أن يون الاتجاه أو القيمة وحده ، ولكنه دائما مزيجا من الاتجاه والقيمة ". (الجوهري، 2008، ص:122)

ويوضح الباحثان أن المزج بين القيم والاتجاه لا يتحقق إلا إذا كان هنا إشباع للعديد من الرغبات والتي يقوم الفرد بإشباعها من محيطه الاجتماعي.

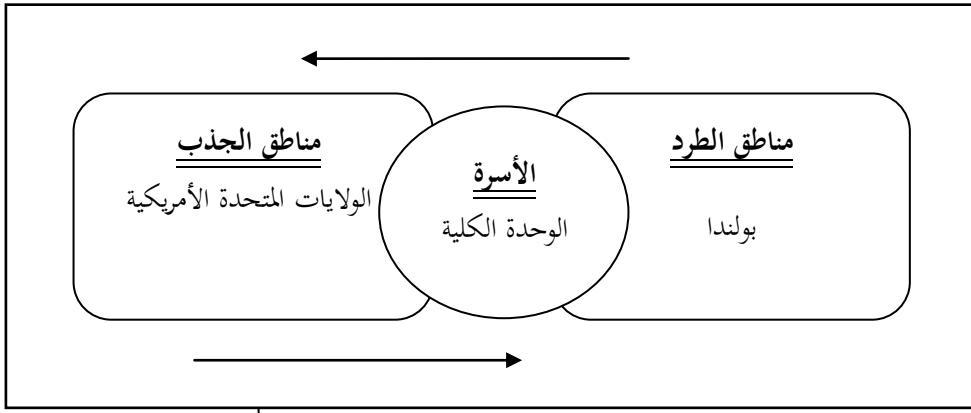
5- الخيارات المنهجية في دراسة " الفلاح البولندي ":

1-5 مجال الدراسة :

لقد إختار وليام توماس وزنانيكي بولندا التي تعبر عن مناطق الطرد للفلاحين البولنديين، وفي تحليلهما ركزا على الأسرة كوحدة أساسية بإعطاء ملامح وطبيعة المجتمع الريفي (التقليدي) إنطلاقا من نظام الزواج، البناء الطبقي وكذا التغيرات الإجتماعية الطارئة عليها، ولإعتبار مظاهر سلوك الأفراد مدخلا لفهم العلاقة التفاعلية بين الثقافة والشخصية.

في حين تمثلت مناطق الجذب في الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفة مظاهر التفكك الاجتماعي، والانحلال الخلقي، ضعف العلاقات الزوجية، تفشي الجريمة ، وصولا إلى فهم القدرة على التكيف مع المجتمع الجديد.

الشكل رقم: 01



إعداد الباحثة: مجال الدراسة في " الفلاح البولندي "

وتأسيسا لما جاء به الباحثان، نجد أن الفرد في منطقة الطرد (بولندا) يبدي نوع من الانفصال والقطيعة عن النظام الاجتماعي والثقافي الذي يعيشه فيه، وبعد الهجرة يحاول الفرد في منطقة الجذب (أمريكا) التكيف من النظام الاجتماعي الجديد بما يحتوي من ثقافة جديدة. وبين الطرد و الجذب هنا جوانب نفسية واجتماعية للهجرة ذات التأثير القوي على الفرد، المجتمع والثقافة.

✓ الفرد الذي يعتبر فاعلا قبل الهجرة وبعدها.

✓ المجتمع أساسه الأسرة كمجموعة أولية.

✓ الثقافة تعكس أسلوب حياة كل مجموعة من المجموعات البشرية وطريقة إندماجها.

2-5 الخيارات المنهجية في دراسة " الفلاح البولندي":

من أجل دراسة تكوين الأسرة في المجتمع البولندي وتبيان المشكلات التي يواجهها الفلاح المهاجر في المجتمع الجديد أمريكا، وسعيا منهما من التفسير العلمي للتغير الذي مس مختلف مناحي الحياة الأسرية الريفية في بولندا نتيجة للتصنيع، وجوانب من الحياة الاقتصادية، عمد الباحثان إلى الإعتماد على مجموعة من طرق وأدوات البحث الاجتماعي نوردها كما يلي:

أ - طريقة دراسة الحالة:

يعد الباحثان توماس وزنانينكي "أول من استعملا دراسة الحالة على نحو منفرد في ميدان البحث الاجتماعي" (الموسوعة العربية، 1998، ص:358)، حيث قاما بجمع البيانات من مصادر مختلفة أهمها : الوثائق الشخصية (الرسائل المتبادلة بين أسر الفلاحين، المذكرات،...)، وسجلات الحكومة والهيئات الاجتماعية المختلفة التي يتعامل معها الأفراد بكثرة.

ب - طريقة تحليل المضمون:

تمثلت هذه الطريقة في تحليل مضمون الخطابات المتبادلة بين المهاجرين وأسرهم. إن أهمية الدراسة الأميريكية للفلاحين المهاجرين لا تقف عند المادة و الموضوع بل تتعدى ذلك إلى المنهج، بيد أن المنهجية المتبعة لم تكن شائعة إلى غاية إستخدامها من قبل توماس و زنانينكي وهذا ما أشار إليه خالد طحطح في مؤلفه الموسوم البيوغرافيا والتاريخ في قوله: "إن منهج السيرة في السوسيولوجيا، الذي سمي في البداية المنهج البولوني (ركز على روايات الحياة)، تم تطبيقه أول مرة في العشرينات من القرن الماضي من لدن . هكذا . عالمي الاجتماع بمدرسة شيكاكو وليام اسحاق... قد استمرت اتجاهات البحثية الانجلوساكسونية من بعدهما في الاعتماد على هذا المنهج البيوغرافي لدراسة الفئات الاجتماعية المهمشة، التي لم تتح لها في السابق فرصة الحديث عن نفسها". (طحطح، 2014، ص: 70)

كما تكمن القيمة البارزة للسيرة الذاتية على وجه التحديد في كون هذه التقنية توفر أفضل بديل للاتصال المباشر (Janina, 2018, p: 604)

6- نتائج الدراسة :

على العموم، وبعد معرفتنا لأهم نتائج هذه الدراسة التي تعكس التغير الإجتماعي في التنظيم الإجتماعي وقيم واتجاهات الفلاح البولندي.

أتضح فعلا أن الدافع الإقتصادي كان السبب الرئيسي في الهجرة.

■ تغير النظام الطبقي في المجتمع الأمريكي (بروز الطبقة العاملة) مع صعوبة الظروف المعيشية للمهاجرين البولنديين.

■ تفكك التضامن الأسري بفعل التغيرات الاقتصادية وتكوين اتجاهات جديدة تتعارض مع القيم الأسرية.

■ ظهور النزعة الفردية بسبب التفكير في تحقيق الرفاه الاقتصادي وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة الجماعية.

- الجمع بين البعد الذاتي والموضوعي للهجرة على إعتبار أن الهجرة ظاهرة إجتماعية لا تكسب معناها إلا من خلال السلوك الاجتماعي للأفراد.
- قيام العلاقة بين البناء الاجتماعي و الشخصية.(عريف،1975،ص:374)
- لا تعدو مواد السير الذاتية أن تكون رسما شخصيا للذات

خاتمة :

ختاما، وفي واقع الأمر يبدو لنا أن دراسة الفلاح البولندي تعتبر قيمة مضافة للتراث السوسيولوجي - إذ لم نقل أنها نقلة نوعية - في العديد من الحقول المعرفية، وبعيدا عن البحوث المهمة بالهجرة كظاهرة عالمية، إتضح لنا أن المحاولة الجادة التي جاء بها وليام توماس وزميله فلوريان زانيكي كان هدفها مواجهة الآثار الإجتماعية، الثقافية والإقتصادية للهجرة الشاملة للفلاحين البولنديين من بولندا إلى أوروبا وأمريكا بمعرفة التغيرات الإجتماعية التي طرأت على التنظيم الاجتماعي في المجتمع البولندي من خلال قيم وإتجاهات الفلاحين و الكشف عن العوامل الذاتية المؤثرة في مواقفهم الإجتماعية من خلال التفاعلات الإجتماعية المختلفة.

وعلى إفتراض صحة تفسيرات النقد الموجه لدراسة الفلاح البولندي وما تضمنته نظريا ومنهجيا، علينا الاعتراف أن لتوماس وزميله زانينكي الفضل على نطاق واسع في طرح مشكلة الهجرة من منظور سوسيولوجي وما تحمله من تغيرات إجتماعية طارئة على البناء الاجتماعي، وإن كنا قد إعتبرنا أن ما فهمناه من تعبير عن القيم وعلاقتها بمواقف الأفراد وسلوكهم من خلال التفاعل مع الآخرين على أنه رؤية نظيرية مخالفة للتفسير البيولوجي كما أرادها توماس؛ والتي لا تتعارض معه.

فيأتي إستنتاجنا أن ما جاء به الباحثان من جهود لم تكن على درجة من التفرد كما ظن بلومر ومؤيديه، إلا أنه ترك بصمات واضحة سواء من حيث الأصالة في المفاهيم أو الاختيار المنهجي للأدوات، ونقصد بذلك السيرة الذاتية وأهميتها في العلوم الاجتماعية التي باتت لصيقة بذكر "مونوغرافيا الفلاح البولندي"، إلى حين العثور على بديل نظري جديد

المراجع :

- 1- خطاب خطاب، واقع هجرة الشباب الجزائري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد، 2017.
- 2- محمد الجوهري، علم الاجتماعي التطبيقي، القاهرة، 2008.
- 3- محمد زياد حمدان، بناء تصنيف للسلوك الاجتماعي، ط1، دار التربية، سوريا، 2015.
- 4- محمد عريف، الجريمة في المجتمع . نقد منهجي لتفسير السلوك الإجرامي، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975.
- 5- نيكولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980.
- 6- عدنان أحمد مسلم، محاضرات في الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، ط1، العبيكان للنشر، الرياض، 2001.
- 7- فهمي جذعان وآخرون، حصاد القرن، الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 2007.
- 8- تابعي كمال، دراسات في علم الاجتماع الريفي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1993.
- 9- خالد طحطح، البيوغرافيا والتاريخ، ط1، دار تبال للنشر، المغرب، 2014.
- 10-Jean-Pierre Pétard, Psychologie sociale, v2, Editions Bréal ,2007.
- 11-Robert Bierstedt, American Sociological Theory, academic press A Critical History, 2013.

12- Robert E. Park, Herbert A. Mille, Old World Traits Transpl,Esc ,V1, Routledge,London,2003.

13-Giulia Sinatti,The Polish Peasant Revisited Thomas and Znaniecki's Classic in the Light of Contemporary Transnational Migration Theory,2008. (www.researchgate.net/publication).

14- Markiewicz Lagneau Janina ,L'autobiographie en Pologne ou de l'usage social d'une technique sociologique,2018. (www.persee.fr/doc/rfsoc_0035).